النجف

مدينة تبنت الإصلاح

الأستاذ عبد الهادي الزعر(*)

(إن المسار الإنساني نحو العالمية يحتاج إلى عطاء الإسلام
في القضاء على العرقية والتخلص من مظاهر الانحطاط)

-توينبي-

لم تبل أمة بعد عزّ أصابها مثل ما بليت أمة الإسلام. ولا زالت في البلوى! فقد تسامت واستطالت وبلغت حداً من السموّ فاق اللامعقول. ثم بدأت شموسها بالأفول والانكفاء وقد شبهت ببركة ماء زلال اخضرت جناباتها وأينعت واتت أكلها ضعفين ثم بعد حين جفت وذوت فلم يبق منها سوى موقعها الذي نمت فيه.

ورب سائل يقول: لم التشاؤم؟ وأجيبه لست متشائماً ولكن التشضي والتشرذم المزمن الذي ورثناه ليس ابن اليوم وهاك صفحة للتذكير.

فقد وقعت بغداد بأيدي الوزراء الأتراك ينهبون ويفسدون وانفصلت فارس وأصبهان وحل الجبل في أيدي بني بويه، ووقعت كرمان في أيدي محمّد بن الياس، والموصل وديار بكر وديار بني ربيعة ومضر في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في أيدي الإخشيديين، والمغرب بيد الفاطميين، والأندلس بيد عبد الرحمن الداخل، واليمامة والبحرين بيدي القرامطة، والأهوار وواسط والبصرة بيد البريديين، ووصلت حالة التدهور السياسي إلى قتل الخلفاء في بغداد على يد الأتراك والتمثيل بجثثهم فإذا طلبوا من الخليفة أن يخلع نفسه وأبى خلعوه وسملوا عينيه وهكذا شوهد الخليفة (القادر) يسأل الصدقة على باب المسجد، ولم تمض سنون طويلة وأعيد نفس السيناريو بالمعتمد بن عباد ففي الأندلس التي تغنينا بموشحاتها وزريابها في شبه جزيرة إيبريا لم تمض قرونها الثمانية بسلام فالتناحر بات صفة ملازمة بين الطوائف وملكهم عباد في اشبيليا وابن الأفطس في بطليوس وذنون في طلطيلة وابن هود في سرقسطة والبلاد كلها في

(*) أديب من قضاء الهندية (طويريج).

اضطراب حتى تمكن المرابطون وكانوا غلاظاً في شمال الجزيرة ودالت دولتهم عندما تغلب عليهم الموحدون في بداية القرن السادس الهجري وكانت قاعدتهم غرناطة إلى أن تمكن منهم أصحاب البلاد الأصليين ومن ساعدهم على طرد العرب من فردوسهم عام ٨٩٧ هـ فقد لقي عشرات العلماء والجهابذة حتفهم حسب الأجواء والمناخات المتاحة ولم يكن ذلك التدهور سياسياً بحتاً، بل هو فكريٌ أيضاً فقد شب الخلاف بين فقهاء الشيعة والسنة وبين الفقهاء والمتصوفة وبين الأغنياء والفقراء، عصر أغلق به باب الاجتهاد فتحجرت الأفكار وصدئت وشائع التعصب الأعمى ووصلت الأحوال الاجتماعية إلى أسوءها، فالأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون إملاقاً وبهذا التناقض الحاد ساءت الأخلاق وامتلأت القصور بالمؤامرات والدسائس والقتل، إلى ذلك اشتهرت مجالس المجون والشرب والقيان وكثرت بيوت النخاسين وشاعت الخرافات والسحر والتنجيم، صحيح أن هناك بعض ومضات تلمع أحياناً وتخبو أحياناً أخر فقد تمكنت الأمة من التغلب على الصليبيين وإخراجهم عنوة وأدخل في روع العرب أن الغرب لا يمكنه الرجوع إليهم مرة أخرى بعد هذا الانكسار الذي لحق بهم، خصوصاً أن الغرب يسير قدماً نحو الحضارة والحداثة والتمدن بينما كان التخلف والتأخر كابوساً جاثماً على الأمة العربية لم يوقظ العرب من سباتهم وسكرتهم تلك إلاّ عندما وجدوا جيوش نابليون تدق أبواب القاهرة وتضرب الحصار حول عكا عام ١٧٩٨ كان ذلك إيذاناً للشق أن يسرع بالركب، فقد تمكنت جيوش محمّد علي بإلحاق الهزيمة بالأتراك، ولكن الدول الكبرى وقفت ضده وفضلت (الرجل المريض) على قوة يافعة لم يحسب لها مسبقاً، وعندما قامت ثورة الحجاز وئدت بأساليب ملتوية مقابل وعد بالاستقلال.

وهكذا دخل العرب مشارف القرن العشرين مهزومين ومخدوعين بل قليلي الثقة بأنفسهم.

فهم منهكون متعبون من أربعة قرون عجاف قضوها عبيداً للأناضول ولم يتذكروا من أسيادهم سوى حملات التأديب والجباية المفرطة وحزمة من الفرمانات جميعها تمجد السلطان وتدعوا لدولته بينما الحقائق تقول العكس، فقد ذكرت السائحة الفرنسية (مدام ريو لافوا) التي زارت العراق أواخر القرن التاسع عشر ما نصه: (إن الطاعون ومرض حبة بغداد أسهل تحملاً من تعسف الحكام الأتراك) وهذا غيض من فيض وعندما حدثت الحرب الكونية الأولى وكانت فرصة الانكليز مواتية لاحتلال العراق وأصبح تحت وطأة بريطانيا يعامله المحتلون بغطرسة وكبرياء فحدثت ثورة النجف (عام ١٩١٨) حيث قتل فيها القائد مارشال.

وما تبعها من تداعيات فقد بدأت التحضيرات لثورة العشرين في أروقة وحسينيات النجف وبين علمائها الأجلاء بعد ثورة النجف مباشرة. ولو رجعنا قليلاً نجد حملات الوهابيين على

مدننا المقدسة وهنا نقف لنجعل النجف في دائرة الضوء لنستقرئها على عجالة: فالنجف مدينة غارقة في القدم بدأت منذ فجر التاريخ، وتحاشياً للإطالة والتكرار كان لزاماً عليّ أن أبدأ من عام (٤٤٨ هـ) عند حلول الشيخ الطوسي المدينة وسرعان ما التأم طلابه ومريدوه حوله إذ ما لبثت المدينة بالتوسع من وجهتين، الأولى وسعة في التمدد الجغرافي ولو على بطء، ووسعة في العلم، وكان الشيخ الطوسي من العلماء الأجلاء عليها عند الطائفة وهما التهذيب والاستبصار وكان يلقي محاضرته بالمشهد الغروي الشريف كما يذكر عبد الله فياض في كتابه (تاريخ التربية عند الإمامية) ولكون المدينة عاصمة روحية للشيعة في العالم أجمع ووجود المرجعية العليا فيها لذا اعتبرت منذ أكثر من عشر قرون خلت معهداً للدراسات الفقهية، فقد اعتمدت موروث الأئمة عليهم السلام ومنشئها الأول الإمام علي عليه السلام فقد دونها بخطه عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وكانت تسمى كتاب علي، فمدرسة النجف (أحادية المذهب) بخلاف المدارس الأخرى في الوطن العربي كالزيتونة والأزهر ومسجد القيروان وبغداد فإنها ارتأت التدريس لمذهبين أو أكثر.

وهذا لا يدل على أن النجف أقفلت على نفسها بإفشاء الفقه الجعفري فقط، بل انفتحت على المذاهب الأخرى خصوصاً وإن الشيخ الطوسي ألف كتاب (الخلاف) وقد اعتبر موسوعة فقهية في الفقه المقارن ناقش فيه آراء المذاهب كافة.

ولنرجع قليلاً فالشيخ الطوسي -رحمه الله- المولود عام (٣٨٥هـ) أمضى سنوات كثيرة بملازمة الشيخ المفيد ومن بعده السيد المرتضى وبقي في بغداد ثلاثة وعشرين عاماً، وبعد مهاجمة داره بالكرخ إبان الفتن المذهبية التي عصفت بها أيام السلاجقة، ومن بعدها انتقل إلى النجف تحت طائلة التهديد والإرهاب، فالنجف تتمتع بهدوء نسبي وقد خلت من التنافس المذهبي وفراغها من العلماء والمفكرين ثم بعدها على السلطان كل تلك الأسباب جعلت من هذه البقعة المباركة أن تكون ميداناً خصباً يتمتع بالرحابة والحرية لنشر مبدأ العترة الطاهرة، وفي نظري إن هذه الظروف المثالية شبيهة بالظروف التي رافقت الإمام محمّد الباقر عليه السلام وولده فيما بعد الإمام جعفر الصادق عليه السلام في المدينة.

حيث انشغال العباسيين بمطاردة الأمويين والتظاهر للعلويين بأنهم مناصرون لهم ولأنهم أولاد عمومة، وبدأت مدرسة النجف ترسي دعائمها الفكرية متخذة من نهج الرسول الأكرم وسيرته العطرة أسوة حسنة.

فقد بدأت أولى خطوات الإصلاح بعد تعرض مدننا المقدسة لغزوات الوهابيين ونشوء حركة المشروطية في إيران، حيث أقدم الشيخ كاشف الغطاء على نقد الأصول التي استند إليها محمّد بن عبد الوهاب وتفنيد آرائه التي أراد تطبيقها بقوة السلاح.

وفي عام ١٩٢٤ اصدر المؤرخ الشاعر د.محمّد مهدي البصير كتابه (تاريخ القضية العراقية) الذي تناول فيه إصلاحات مدحت باشا وعن حاجة العراق للإصلاح.

وتوالت دعوات الإصلاح تترى وهنا ظهرت مبادرات الشيخ العلامة (المظفر) ودعوته للإصلاح فدعا إلى الانفتاح من منجزات العلوم الأخرى وتأسيس منتدى النشر والشروع ببناء كلية الفقه، التي تعتبر بوابة علمية رائدة لانفتاح المؤسسة الدينية على العلوم الأخرى وسعى إلى استيعاب مكتسبات المعرفة.

ولابد لهذا الحراك الفكري أن يثمر فقد أينع على يد السيد محمّد تقي الحكيم وكتابه (الأصول العامة للفقه المقارن) ويعتبر الإمام محمّد باقر الصدر الذي يعد من أهم الرموز الإسلامية المنفتحة ثقافياً وفقهياً فقد تفانى على إنضاج مشروع الإصلاح، وتعد طروحاته وأفكاره الرائعة نبراساً يضيء الدياجير المظلمة علماً أنه من تلاميذ مدرسة (جمعية منتدى النشر) الذي أسسها الشيخ محمّد رضا المظفر وكان حينها في الكاظمية قبل انتقاله للنجف لمواصلة دراسته الحوزوية عام ١٩٤٥ وظهرت مجلة (العلم) بالصدور وكان يشرف عليها السيد هبة الدين الشهرستاني (١٨٨٤ - ١٩٦٧ م) وهو أحد أبرز مؤيدي المبادئ الدستورية وظلت دعواته للإصلاح متواصلة في عقد الخمسينات، ومن رجال الدين اللبنانيين والذين أكملوا دراستهم في الحوزة السيد محسن الأمين العاملي الذي وجد دعوته إلى إصلاح النظام التعليمي وضرورة تعليم البنات والمساواة ثم دعوته الجريئة لتهذيب وتنقيح بعض الطقوس الدينية، وقد تعرض لحملة كبيرة للتشكيك بشخصيته مما حدا بأحد الشعراء معرضاً للأمين وكان وقتها مقيماً بدمشق قائلاً:

يـــا راكبـــا إمـــا مـــررت بجلـــقِ فابـــصق بوجـــه (أمينهـــا) المتزنـــدقِ

ولاقت أفكاره رواجاً في دمشق وتُحقّقْ نجاحاً باهراً هناك حتى سمي أحد أحياء العاصمة باسمه.

ومن العلماء الذين حاولوا التجديد ولكنهم جوبهوا من قبل العامة وأشعلوا عليهم حرباً شعواء لتثنيهم عن آراءهم أو سحب كتبهم: (المرزا النائيني) مؤلف كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) لقد اضطر هذا الفقيه إلى سحب كتابه من الأسواق فوضع مبلغاً من المال مقابل كل نسخة مسترجعة.

فهناك علماء كثر أدلوا بدلوهم في مضمار التجديد والإصلاح منهم الشيخ محمّد حسين الخالصي والشيخ محمّد جواد مغنية والسيد محمّد حسين فضل الله والشيخ مهدي شمس الدين والشيخ حسين مروة وهؤلاء الجمهرة من العلماء جلهم من لبنان.

ولبنان غني عن التعريف بميدان الثقافة منذ زمن سحيق فقد ولجت إلى لبنان حركات الاستشراق بمسميات عدة فامتلأت بيروت وحلب وزحلة ودمشق بموجات المبشرين البروتستانت كما أسست الجامعة الأميركية عام ١٨٦٦ في بيروت كما أسست جامعة أخرى باسم القديس يوسف عام ١٨٧٤ والدراسة أيام العثمانيين كانت بالتركية والدراسة في الكليات اللبنانية بالإنكليزية من هنا تعرضت الثقافة العربية الإسلامية لغزوٍ عنيف مما شجع أحد المستشرقين على القول (بأن الحضارة الإسلامية لم تكن سوى حروب ودماء فالأوربيون يعتبرون أن الشرق العربي غني بموارده وإمكانياته ولكنه متأخر بدائي يسيء معاملة المرأة).

وقال أحد قادة فرنسا العسكريين في لبنان (بير كلير): كانت التربية الوطنية في لبنان معظمها في أيدينا فقد كان أكثر من (اثنين وخمسين ألف طالب) يتلقون دروسهم في مدارسنا وكان من بينهم فتيان وفتيات من عائلات إسلامية عريقة.

وأورد رأياً آخر للمستشرق (هاملتون جيب) قوله: (لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي أن يترك في المسلمين ولو من غير وعي منهم أثراً يجعلهم في مظهرهم العام غير مسلمين).

ومن هذا الاستهلال البسيط أزمع اللبنانيون ومن جبل عامل وما جاورها بالذات على رد هذه الافتراءات ودحضها فظهرت مؤلفات محمّد جواد مغنية وغيره بعدما اغتنت من مناهل النجف وحوزتها ومدارسها إلى الرد على المتقولين ولا ننسى جهود (الشيخ أحمد عارف الزين) ومجلته (العرفان) وجهوده المتواصلة ففي كتابه فلسفات ص٩١٢ قال الشيخ مغنية (يختلف حكم التماثيل بحسب ما يراد لها في حرام وصانعها خارج الإسلام إذا كان قصده أن يرمز إلى الخالق الذي ليس كمثله شيء أو أراد أن يقربه إلى الله لأن التمثيل بمجرده لا يوجب الكفر وعليه فالتماثيل جائزة إذا قصد منها الزينة والجمال) كان ذلك رأيه في النحت والتماثيل.

وفي ص٩١٧ من نفس المصدر يقول:

(يأبى الشيوخ إلاّ الجمود على سنة الأولين ومواجهه الجديد بالقديم ولو أنهم واجهوا التيار الدافع من الغرب بنظرية إسلامية حديثة لما ضربت عليهم هذه الذلة و المسكنة والآتي أفدح وأقدح).

يقول محمّد جواد مغنية في كتابه (الإسلام بنظرة عصرية، بيروت - دار الجديد ص٩٤):

(إن أحكام المعاملات ليست في وضع الشارع كي يجب التعبد بها بل هي آراء ونظريات شخصية تجوز مخالفتها والعمل بضدها، وعليه فإن التغيير والتجديد ممكن في المعاملات تبعاً لمصلحة الحياة وتطورها، ولهذا نجد تفسير القول الشائع إن الشريعة الإسلامية تصلح لكل زمانٍ ومكانٍ أي أن مبادئ التشريع تفسح المجال لكل اجتهاد يستجيب لحاجات الناس) ويقول ما

نصه: (كل شيءٍ تجاوب مع عصره وبيئته إلاّ علومنا ومدارسنا وكتبنا ورسائلنا فإنها تدور في فلك الأقدمين ولا تتعداه من علم اليقين بأن آفاق الإسلام أشمل وأوسع مما هو مدوّن في كتب السلف والخلف، فلسفات ص٩٢٣).

هذه الآراء التي قرأناها والتي تمتلئ عصريةً وانفتاحاً أثنى عليها الإمام محمّد باقر الصدر(قدس) في كتابه (الاجتهاد والحياة) ص ١٦٣ قائلاً:

(أول مرة أقرأ فيها لفقيه إسلامي من مدرسة الإمام الصادق أوسع نظرية لعنصر الفهم الاجتماعي يعالج فيها بدقة وعمق الفرق بين المدلول اللغوي وبين الاجتماعي للنص فقه الإمام الصادق الذي وضعه على يده في هذا الكتاب المبدع على صورة رائعة الأسلوب والتعبير والبيان).

ولا ننسى أن الإمام الصدر هو من بين العلماء الذين نادوا بالإصلاح في كل الميادين فقد قال مرة عن ثبات منهج الدرس وصعوبة التغيير قائلاً:

إذا أريد تعبير كتاب بكتاب آخر في مجال التدريس يقال: ليس الأمر هكذا لا بد من الوقوف، لا بد من الثبات والاستمرار على نفس الكتب الذي كان يدرس فيه الشيخ الأنصاري أو المحقق القمي، هذه النزعة الاستصحابية تجعلنا دائماً نعيش مع أمة مضى وقتها، مع أمة قد ماتت وانتهت بظروفها وملابساتها. ولم تثني عزم هذا الفقيه الفذ ممانعة البعض واحتجاج آخر، فمضى مستمراً بثبات وعزيمة إلى أن أغنى المكتبة العربية بكنوز من المعرفة تخطى بها حدود الإقليمية وأثبت بشكل لا يقبل الشك عالمية الإسلام.

فقد كان المجتمع العراقي متخلفاً تخلفاً مدنياً على جميع الأصعدة وهناك فجوة كبيرة بين الشعب والنخب المثقفة والمدركة ولكون معظم المشاريع الإصلاحية لم تنبت في بلدنا نباتاً مثمراً فأصبحت خواء لهذا اعتبرت المشروع الديني هو أنجح علاج لمشكلات المجتمع وتهذيب الأفكار.

فقد ذكرت (صابرينا ميرفان) في كتابها حركة الإصلاح الشيعي ما نصه:

ومن العناصر التي حوربت السيد هبة الدين الشهرستاني فقد أصدر مجلة العلم في النجف في ٢٩/آذار/ ١٩١٠ وكانت الحوزة تحرم الصحف على طلابها، ونتيجة لأفكاره ودعواته الإصلاحية التي كان يطرحها وخصوصاً موضوع نقل الموتى حورب وهرب خارج العراق.

وقد ذكر العلامة علي الوردي (اشتغل فقهاؤنا بأشياء سماها السيد محسن الأمين تضييع العمر فيما لا فائدة منه).

ويذكر نفس المصدر أن الميرزا حبيب الله الرشتي المتوفى (١٣١٢هـ) إذ كان من أعظم المجتهدين تدريساً في زمانه فكان يعمد في دروسه إلى التطويل حيث أنه بقي في تعريف (البيع) شهوراً وكان ذلك مألوفاً في ذلك الزمان.

وعن السيد محسن الأمين قوله: إن عشرات المجلدات كتبت في علوم الأصول فكان ذلك تعقيداً وتبعيداً لا تعبيداً ولو كان قد نقحوا تلك الكتب وهذبوها فكان عشرها كافياً.

فالمعروف أن الجديد محارب في المجتمعات التي ورثت إرثها الثقافي من غير تمحيص ولهذا جوبهت أكثر الآراء التي طرحت والتي غايتها التغيير فقد نقل عن الشيخ العلامة محمّد رضا المظفر قوله (لا نستطيع أن نخرج صوتنا من غرفتنا خوفاً وحذراً من خصوم التجديد).

ومن هنا لا بد من التذكير بموضوع مهم ألا وهو (النظام المالي) فإن أصل الآفات تنبع منه فالمعروف أن مدارسنا ومنتدياتنا العلمية والحوزوية سابقاً كانت قائمة على المساعدات (وسهم الإمام) وما إلى ذلك من تسميات فقد أوردت الكاتبة (صابرينا ميرفان) في كتابها السابق هذه الرواية فقد تعرض الشيخ عبد الكريم الحائري مؤسس حوزة قم الذي طلب تعلم اللغات الأجنبية وبعض العلوم كمقدمات كي يستطيع طلاب العلم عرض مبادئ الإسلام في البلدان الأجنبية وما انتشر الخبر حتى جاءت جماعات من العامة وقالوا إن هذه الأموال التي ندفعها باسم (سهم الإمام) لا يمكن صرفها لتعليم الطلبة لغة الكفار.

قبل أن أنهي هذه الوقفات السريعات والتي دونتها على عجالة لم يكن الشيخ رفاعة الطهطاوي والإمام محمّد عبده والمفكر الكواكبي ومساعي الشيخ رشيد رضا والرائد علي عبد الرزاق في كتابه الإسلام وأصول الحكم والمصلح جمال الدين الأفغاني الذي قضى شطراً من حياته في أروقة النجف لم تكن مساعي أولئك النوابغ إلاّ مساع حثيثة وأفكار جريئة نادت بالإصلاح وإزالة ما تراكم في طريق الإسلام من عقبات ونقدات لمرجعيات الثقافة السائدة آنذاك فإلى منتصف القرن العشرين كانت النظرية الشيعية خاضعة لمحاولات إصلاح منهجي فكانت الآلية الاجتهادية قريبة من الفلسفة والمنقط الأرسطي وكان الصراع بين الإخباريين والأصوليين قائماً كان من الشيخ جعفر كاشف الغطاء وهو الذي أوجد ما عرف بـ(الدليل) أو بالأصل الخامس من الاستنباط المتمثل بالحس الفقهي فقد استفاد من جهود هذا العلامة مؤسسات إنتاج الفتوى والتشريع لدى الشيعة في إيران ولبنان والبحرين وباكستان بل في كل بلد حلت فيه مبادئ أهل البيت عليهم السلام.

وستبقى مدينة النجف ومدرستها الرائعة خالدةً ما بقي الدهر، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويكفينا فخراً أن مفتي الديار المصرية الشيخ (شلتوت) يرحمه الله أفتى فتواه الجريئة تلك (يجوز الانتقال من المذاهب الأربعة إلى المذهب الخامس ولا يجوز العكس) وأخيراً لا أدعي أني أحطت بالموضوع إحاطة السوار بالمعصم ولكنها محاولة ومن الله التوفيق...

❖ ❖ ❖